العبقرية

بقلم
ألدوس هكسلي
ترجمة
نبيه غطاس

ليست العبقرية والنبوغ وقفا على الجنس البشري ، فبين الحيوانات الدنيا نرى ايضا الافراد المتفوقين والبارزين الذين اوتوا مقدرة عقلية تفوق المعدل (كما يلاحظ ذلك مربو الحيوانات والطيور) . ان اكثر **هؤلاء النابغين في عالم الحيوان يشبهون الفلاح الذي ذكر في مرثاة توماس غراي** : « يعيش ويموت كملتون او كروميل صامت مغمور ، بريء من دم بلاده » . هؤلاء العباقرة ، اذ تنقصهم المقدرة على الكلام ، لا يسعهم ان يعطوا اوامر او ينشروا اراءهم واكتشافاتهم بين رفاقهم ، كما ان نتائج اختباراتهم الفائقة لا يمكن ان تدون او تورث الى الاجيال التالية . ومع هذا فهنالك بعض حالات تشذ عن هذه القاعدة . خذ مثلا العصفور المسمى بالقرفف الازرق الذي يعيش في غربي اوروبا والمعروف بقدرته العجيبة على ان يتناول طعامه وهو على اية وضعية : لا فرق عنده اذا كان رأسه الى الاسفل اواذا كان مستلقيا على جانبه الايسر او معلقا من خيط او نائما على ظهره . لقد قام هذا العصفور خلال السنوات العشرين الماضية باكتشاف يعادل ، بالنسبة الى مستواه التطوري ، اكتشاف الانسان للطاقة الذرية .. لقد اكتشفت هذا العصفور الحليب والطريقة التي يحصل بها عليه ـ والمعروف في الطبيعة انه لم يذق طير واحد نقطة حليب منذ اقدم العصور !

تم اكتشاف هذا العصفور للحليب بسبب معيشته في بيئة يشرب

ثم اكتشاف هذا العصفور للحليب بسبب معيشته في بيئته يشرب سكانها الحليب بكثرة وينقل الزارعون الحليب الى قراها ومدنها في اوعية زجاجية تحمل على سيارات كبيرة. ان الذي اكتشفه هذا العصفور هو ان يرفع غطاء قارورة الحليب ويشرب الطبقة الغنية بالزبدة الطافية على وجه الحليب .

ان ما يهمنا تبيانه في هذا المقال هو ان عمل هذا العصفور تكرر مرارا كثيرة خلال السنوات القليلة الماضية ، ولم ينحصر بتلك العصافير المقيمة في بلد واحد بل تعداه الى بريطانيا وجزرها وبقية اوربا . وتعني هذه المظاهر شيئا واحدا وهو ان حفنة من هذه العصافير تمتاز عن بقية رفاقها ببعض الذكاء بل العبقرية ـ هذه القلة تمثل نيوتن هذه الفئة وبلانكها واينشتينها ـ اكتشفت وحدها حسنات الحليب واساليب سرقته من الاواني الزجاجية . وما كان لاخبار هذا الاكتشاف ان تنتقل من طير لاخر ، من منقار الى منقار ، ولكن العمل بالذات ـ اي رفع اغطية الاواني وشرب الحليب ـ قلدته هذه الطيور وانتشر بين جموعها بسرعة .

وحدث في نيوزيلندا شيء شبيه بما ذكرنا اعلاه عندما دخلت الى البلاد اول مجموعة من الغنم . فان افرادا متفوقين بين طيور « الكيز » ـ نوع من الببغاء ـ اكتشفوا طعم كلي الخروف وامعائه ، واكتشفوا طريقة لاستخراجها من الخروف الحي ، وذلك بان يقف الطير منها على الخروف وينقر في جلده وعضلاته الى ان يصل بمنقاره الى احشاء الفريسة . وهذا العمل الذي نحسبه متوحشا والذي اكتشفه عباقرة اشرار من هذا الطير انتشر بسرعة بين افراد « القطيع » من هذا الطير، الذين يقلدون فقط ، مما جعل اهالي البلاد ينقمون على طير « الكيز » ويكافحونه .

ان اكثر المتفوقين من الحيوان يظهرون اصالتهم ومواهبهم البارزة في نواح عملية وحسب . ولعله من الاصح ان نقول ان الناس يلاحظون هذه الاصالة وهذه المواهب فقط عندما تستخدم في النواحي العملية. ولا شك ان عند افراد من الحيوان احساسات جمالية وطاقات ابداعية متفوقة على ما عند افراد « القطيع » العاديين . وحيث ان هؤلاء المتفوقين لا يملكون اللغة ليكتبوا بها الشعر ، ولا الرموز ليجروا بها الحسابات الرياضية ، ولا الايدي ليمسكوا بها الفرشاة او الازميل ، فان طاقاتهم الفطرية ستظل مغمورة ودفينة . هؤلاء لا يسعهم ان ينتجوا شيئا من شأنه ان يلفت النظر ..

اما بين الرجال والنساء فان ظهور العبقرية الفنية والعقلية وملاحظتها اسهل وابين من العبقرية العملية . فالافراد القادرون على تحقيق النجاح في شؤون عملية كثر ونجاحهم ذاك يتوقف على الظروف الخارجية . **ولكن الظروف الخارجية قلما تؤثر على مجالات العقل والخيال . فالشاعر** والرياضي يجب ان يولدا شاعرا ورياضيا قبل ان يصنعا . وما من ظروف ، مهما كانت ملائمة ، تقدر ان تغير فنانا غير موهوب او مفكرا ضحلا الى مبدع جمالي خلاق او الى مكتشف لحقائق اعمق .

اما في المجالات العملية فان الامور العظيمة بوسع الرجال ذوي المواهب العادية ان يحققوها ، الرجال الذين انعم عليهم بالمزيد من الحظ . واما في مجالات العقل والخيال فان الامور العظيمة لا يحققها الا الرجال الذين وهبوا مواهب ممتازة منذ ولادتهم .

ان هذه المواهب او الطاقات خاصة ، فالعبقري في الموسيقى لا يملك مواهب في الفنون المرئية ، والشعراء (حتى اولئك الذين يكتبون شعرا غنائيا) لا يملكون اكثر من موهبة عادية بالموسيقى ، وقليلا ما يكتب الرسامون شعرا جيدا .

لقد سأل ديماس صديقه الشاعر مالارمه مرة : « قل لي بربك ، لماذا لا اكتب شعرا جيدا ؟ ان عندي لافكارا مدهشة » فاجابه الشاعر : « ولكن الشعر يا صاحبي لا يصنع بالافكار وانما بالكلمات » . والكلمات بالطبع تختلف تماما عن المواد التي يعمل بها الفنان . ان الرسامين

الذين نكتبون جيدا لايرسمون جيدا ، وليس بيننا عبقريات شاملة ، اما الذين عملوا في مجالين او اكثر مثل وليم موريس ، فان عملهم كان متوسط الجودة في نواحيهم المختلفة . واخرون مثل بلايك وغليوم دي ماشو « شاعر وملحن في القرن الرابع عشر » تفوقوا بشكل بارع في ناحية واحدة ، وكان نجاحهم تقريبا عاديا في النواحي الاخرى .

ان طبيعة العباقرة خاصة ، اي ان لكل منهم تفرده ، ولكن الطرق التي يعملون بها هي عامة نوعا ما . فبالرغم من الاختلاف الكبير بينهم، يملك « الرجال غير العاديين » شيئا مشتركا ، هذا الشيء المشترك هو ما يسمى عادة « بالوحي » Inspiration، وتحمل هذه الكلمة مدلولات رومنطقية وعاطفية ، ولكنها على تقصيرها بتادية المعنى المرغوب خير كلمة لدينا وافضل تعبير للحقائق . وكلمة Inspiration تعني « الاستنشاق الى الداخل » او قل الالهام الداخلي . ولنا سؤال في عقب شرح هذه الكلمة : ماالذي يسبب الوحي ؟ من الملهم ؟ كان هذا الملهم بالنسبة الى سقراط شيطانه الحارس ، وبالنسبة الى الشعراء الاقدمين واحدة من الهات الشعر التي قال عنها هيسيودس : « توسع عقل الانسان بالمعرفة وتجعل لسانه ينطق من السماء » . وحسب اعتقاد الفلاسفة الاول واصحاب النظريات الطبية في العصر الروماني كان الملهم هي الروح التي حسبوا انها كالريح Pneuma وانها مساوية لمادة الكون . وفي اعتقاد افلاطون وارسطو كان الملهم Nous او العقل الداخلي . اما الفلاسفة الرواقيون فكان هذا الوحي الفطري مصدره « اللوغوس » Logos . وقد دخلت هذه العبارة « لوغوس » الى المسيحية بمعنى « الكلمة » وهذه ترجمة سطحية وجزئية للعبارة الاصلية ذات المعاني الكثيرة : « في البدء كانت الكلمة ... به كانت الحياة والحياة كانت نور العالم » .

ونتنقل من اليونانية حيث نجد كلمة الروح Spiritus المشابهة لـ Pneuma وتعني النفس او الريح «كما يبين اشتقاق كلمتي روح وريح»وهذا اصل كلمة in-spiration كانت هنالك روح الالهة ومنها نبعت عبارة الروح الاقدس ، كانت هنالك الروح غير المنظورة او نسمة الحياة. كانت هنالك الارواح الشريرة الشيطانية وارواح الاموات التي تعود لتؤذي او تساعد الاحياء ، وبالتالي ، بعد مجيء المسيحية، كانت الروح القدس ، احد الاقانيم الثلاثة . ان هذه المفاهيم المتعددة ، الطبية والاسطورية والفلسفية واللاهوتية والروحانية ، امتزجت مما عبر العصور لتعبر عن الوحي والالهام .

نحن اليوم نفضل ان نتكلم عن « العقل الباطن » وعن « انطلاق المعاني الوجدانية في العقل الواعي » لهذه الكلمات معان علمية مؤثرة . ولكني اشك ان كانت تفسر الظواهر والحقائق بصورة اعم من تفسير « لوغوس » و « شيطان » و « نفس » و « وحي ».مالنا ولذلك ، دعونا نستمع الى مايقوله العباقرة عن تجاربهم وعن موقفهم من هذا الذي نسميه « وحيا » .

كثيرون منهم يحسون باصوات وهواتف داخلية . كان ديكنز مثلا يسمع السيدة غامب وهي تتكلم معه « كانت تزوره صباح كل احد في الكنيسة » . وكان فيره يسمع وينظر شيطانه ، في اليقظة وفي الاحلام فيكتب روبرت ستيفنسون عن « الناس الصغار الذين يشرفون على مسرح الانسان الداخلي » وهؤلاء الناس الصغار كانوا مسؤولين عن خيالاته « وكانوا يخبرونه القصة حادثة حادثة في تسلسل فريد ويبقونه جاهلا بمقاصدهم النهائية » ، كان اكثر عمل الناس الصغار يتم اثناء نوم ستيفنسون « وهذه كانت حصتهم من العمل ، حتى وما كنت انجزه بعد قيامي من النوم لم يكن لي وحدي ، بل كان لهم اليد الطولى في ذلك » .

كان الفرد دي موسه ينال مساعدة كبرى من شياطينه المتعددة وهو يقول : « ان المرء لايعمل ، انه يصغي ، كما لو كان هنالك شيء غريب يهمس في اذنه » . ويجيب بتهوفن على السؤال : من اين تأتي افكارك ، فيقول : «ان افكاري تأتي غير مدعوة ، مباشرة ، غير مباشرة، بوسعي ان امسكها بيدي ، في الهواء الطلق ، في الغابات ، اثناء سيري في سكون الليل ، عند الفجر ، ثائرة الاطوار بشكل يترجمها الشاعر الى كلمات اما انا فاترجمها الحانا تصيح وتنفجر وتثور حولي الى ان ادونها والجمها في نوطات موسيقية » . ويكتب نيتشه كلاما شبيها بذلك : « الانسان يسمع ، لايلتمس ، انه يأخذ ولا يسأل . تلتمع الفكرة فجأة كانها البرق ، انها تفرض نفسها كما لو كانت الحاجة ، دون تردد بحيث لاتترك لي خيارا في الامر ، كل شيء يحدث لا ارادية كما لو تفجر من اعماق الشعور ، من اعماق القوة والقداسة والمطلق ، ان اروع ما في الامر هو الطبيعة اللاارادية للخيالات والصور ».

ويضعف وورسورث « الطبيعة اللاارادية للخيالات والصور . عند الشاعر بصورة جميلة ، لا شك انها كانت بالذات لا ارادية :

« .. ويطلع خيال جميل في اغنيتي ..

مكتمل الشكل ، كما تطلع فينوس من البحر »

واحيانا يكون الوحي اقل وضوحا ، والخيالات اقل اكتمالا ، والذي يلتمع في ذهن الشاعر عريس فينوس ولكن

« تلك القوة الغظيعة التي تصعد من هاوية العقل ، او كالضباب المتمرد الذي يلف المسافر الوحيد فجأة »

ثم يقـول :

« كنت ضائعا ، مطوقا ، دونما قدرة على الانفلات ،

وانما بوسعي ان اقول لروحي الواعية :

« اني اعترف بمجدك » .. ففي الابداع هذه ـ

عندما ينطفيء نور الاحساس ، ويبقى شعاع يكتشف العالم غير المرئي ـ في هذه القوة تكمن العظمة »

بوسعنا ان نورد اقوالا كثيرة من هذا النوع ولكن هذه الامثلة القليلة تكفي لان تبين الدور الكبير الذي يلعبه الالهام في انتاج العبقري .وبالطبع لا يجب ان نفكر ان الالهام في انتاج العبقري . وبالطبع لا يجب ان نفكر ان**الالهام لا يلعب دوره في حياة الناس العاديين. فالخبر والملاحظة** يبينان حقيقة وهي اننا كلنا ، الى حدما ، ملهمون . ونتاكد من هـذا بمراجعة التعابير العادية المستعملة في كل لغة ، فعندما يرى الواحد منا ان تفكيره ، في وقت ما ، سليم اكثر من اي وقت اخر يقول : «ها ان فكرة جيدة خطرت لي »او« جاءت ببالي » او« الان اراها بوضوح »» وفي كل حالة تدل الجملة على ان احسن افكارنا لها اصل «هناك» ، في شي ما مشابه ، على المستوى العقلي ، للعالم الخارجي عنا ، فقول ديكارت المأثور : «انا افكر ، اذن انا موجود» يصبح لدى بحثه الدقيق عبارة **مغرقة في الغموض : هل انا الذي ابدا عملية التفكير ؟ اليـس** من الاصح ان نقول : « الافكار تأتيني ، الافكار الذكية والافكار السخيفة، الافكار المنسقة والافكار المضطربة ، الافكار المعقولة والافكار التي لا علاقة لها بحقيقة الحياة . واني ادرك بعض هذه الافكار ، واذ ذاك ، عنـد ادراكي لها ، احاول ان اسقط منها السخيف البالي ، واعمل جهدي **لاخلل وابلور واستخرج النتائج من تلك الافكار التي تبدو انها اغنى واشمل».**

ويعتقد جوبتر : « ان ما يفعله العبقري كبعقري يتم في اللاواعي ، وبوسع العبقري ان يعمل عقلانيا وبتصميم وعن وعي ، ولكن يتم كشيء جانبـي » .

ان شيئا من هذا ينطبق على الافراد العاديين غير العباقرة . ان الافكار «تنفخ» الى داخلنا «من مكان خارجي» وذلك الجزء من وجودنا الذي نسميه « انا » يفيد من هذه الافكار على احسن وجه . والفرق الواضح بين العبقري وبقية الناس هو ان اكثر الهاماته قيمة بالنسبة اليه ، بينما لا تكون الهاماتنا كذلك بالنسبة الينا ، وكون شيء ما قد تسرب الى داخلنا كشعاع من وحي والهام لا يثبت ، مع الاسف ، انـه شيء قيم . كثيرون هم شعراء الوسط ، والرسامون العاطلون ، والانبياء الكاذبون ، والمراؤون الدجالون ، الذين كتبوا ونطقوا بالوحي وبارشاده وكانوا كادوات طيعة لقوة احسوا هم انها مصدر لكل الحقيقة ، بينما كانت هذه القوة بالذات مصدرا لكل سخف وتفاهة . ان ممارسة الاتصال « بهذه القوة الغظيعة التي تصعد من هاوية العقل » خدعت اذكى الناس وجعلتهم يعتقدون ان نتاج الوحي يجب ان يكون جيدا كالشعور بالوحي نفسه . ان فولتير ، على سبيل المثال ، كان ملهما عندما كتـب احدى مآسيه الهزيلة والتي اضاع عليها كثيرا من وقته وطاقته . ويقول عنها :« خمسة فصول في اسبوع انا اعلم ان ذلك شيء مستهجن ، ولكن ليت الناس يدركون ماذا بوسع الحماسة ان تفعل ، وكيف ان الشاعر المستسلم لعبقريته يقدر ان ينجز في ايام قليلة عملا كان يحتاج لانجازه ، لولا تلك العبقرية ، سنة او اكثر . ليتهم يدركون « عطية الله» لكانت دهشتهم اقل مما هي الان !»

ما دام فولتير نفسه قد اعماه الالهام ، فما هو حظ العاديين ممـن لا تهبط عليهم الرؤيا والوحي من عند الهة الشعر ، ورسالات من عالـم الروح ؟ ان « القوة الغظيعة التي تصعد من هاوية العقل » هي فظيعة بكل معنى من معاني هذه الكلمة ـ التي اسيء استعمالها كثيرا ـ انهـا فظيعة بمعنى انها توحي الرعدة بما تنجزه من خوارق ، بما تبدعه مـن جمالات وبما تصوره من الروائع فوق ـ الانسانية والتي تفوق الوصف . انها فظيعة ـ بالمعنى الدارج للكلمة ـ كفظاعة الموسيقى التي دون الوسط ، فظيعة كالرواية العاطفية ، فظيعة كتسعة وتسعين بالمئة مـن الخطباء الذين يلقون خطبا بعد العشاء ، فظيعة كالمتبجحين والنظريين المتحمسين وكالذين يخبرونك نوادر سخيفة ..

كل شيء في اللاواعي : الحقيقة والاحشاء ، الرائع والقبيح ، الحب والسرور والسلام والحكمة ومتاهات القرود ومستشفيات المعاتيه والبلداء. يرجع الفضل عادة الى فرويد بانه كشف للعالم عن « العقل الباطن او اللا واعي » ، وفي هذا بعض الحقيقة ان فرويد كشف للعالم عن ناحية واحدة من نواحي اللاواعي ـ ناحية متاهات القرود ! ـ ولكن نظـرة اوسع للاواعي قدمها معاصر لفرويد وهو ف . مايرز الذي كانـت بحوثه الطويلة عن « الوعي دون ـ الوجداني » كما قال وليم جيمس

صـدر حديثـا

الغيان والغنـاء في العصر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد	٦٠٠
الادب الصغير والادب الكبير لابن المقفع	٣٠٠
ترجمات الاشواق لابن العربي	...
ديوان اوس بن حجر للدكتور محمد يوسف نجم	...
تاريخ الدول الاسلامية لابن طباطبا	٧٥٠
تاريـخ اليعقوبي جزءان	٢٠٠٠
ديوان جرير	١٠٠٠
ديوان ابن حمديس ـ تحقيق الدكتور احسان عبـاس	١٥٠٠
ديوان الفرزدق جزءان	١٧٥٠
ديوان زهير بن ابي سلمى	٣٠٠

الناشر : دار بيروت ـ دار صادر

« المحاولة الاولى لمعرفة ظواهر التنويم المغناطيسي والهلوسة والايحاء الذاتي وازدواج الشخصية والوساطة » وربما زاد جيمس عليها : والعبقرية والوحي والنوم » كاجزاء متصلة ، في كل واحد » . وخلاصة دراسة ثلاثين سنة للوعي دون ـ الوجداني « ونفضل اليوم ان نسميه العقل اللاواعي او الباطن » جمعت في كتاب مايرز الذي نشر بعد موته ١٩٠٣ بعنوان « الشخصية الانسانية وبقاؤها بعد الموت الجسدي » . وقد تبين للذين قرأوا مجلدي هذا الكتاب ان فرويد ، في انشغاله بدراسة الهستيريا واضطراب الاعصاب ركز بحثه اكثر مما يجب على الناحية السلبية من العقل الباطن واهمل نواحيه الايجابية الاكثر اهمية . ويميل الفرويديون الى الاعتقاد ان بناء العقل مكون من طابقين فقط : طابق اول فيه الوعي الشخصي ، وطابق سفلي ، تملأه الاقذار ونقطنه الجراذين والخنافس السوداء واللاوعي الشخصي ، بل هو مسكن الرغبات المكبوتة والتناقضات السافلة والبقايا المزعجة من ماض يرفض ان يموت . ولكن الحقيقة ، كما يقول مايرز ، ان بناء العقل مكون من عدة طبقات ، الطابق الذي دون ـ الاسفل ليست له ارض ، والطابق الاعلى لاسقف له . كلا هذين الطابقين ـ الاعلى والاسفل ـ كما يقول مايرز ويشاركه الكثيرون من المفكرين في القضايا الروحية ، ينفتحان على ابدية « الوعي الكوني » ولا نهايته ، حسب تسمية وليم جيمس ، على الذات الالهية حسب تسمية المتصوفين ، على النور الازلي، على العدم .

وفي مكان ما على الطريق بين الطابق الاعلى الذي لا سقف له والطابق الاسفل الذي لا ارض له، تمتد القطاعات التي تستمد العبقرية منها الهامها .

ترجمة نبيه غطاس

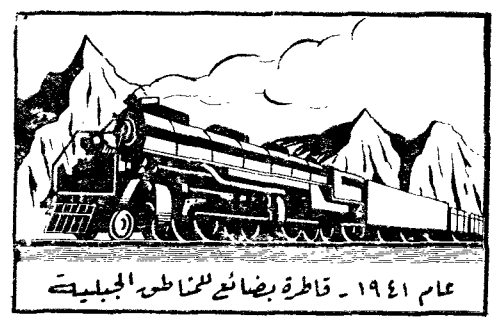
عام ١٩٤١ ـ قاطرة بضائع للمناطق الجبلية

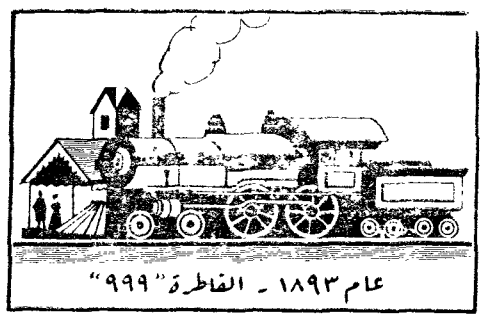
عام ١٨٩٣ ـ القاطرة "٩٩٩"

تطوّر وسائل النقل : قطعت وسائل النقل شوطاً عظيماً بين القاطرات الحديدية العاملة على الحطب والفحم الحجري الى القاطرات الحديثة العاملة على زيت الديزل

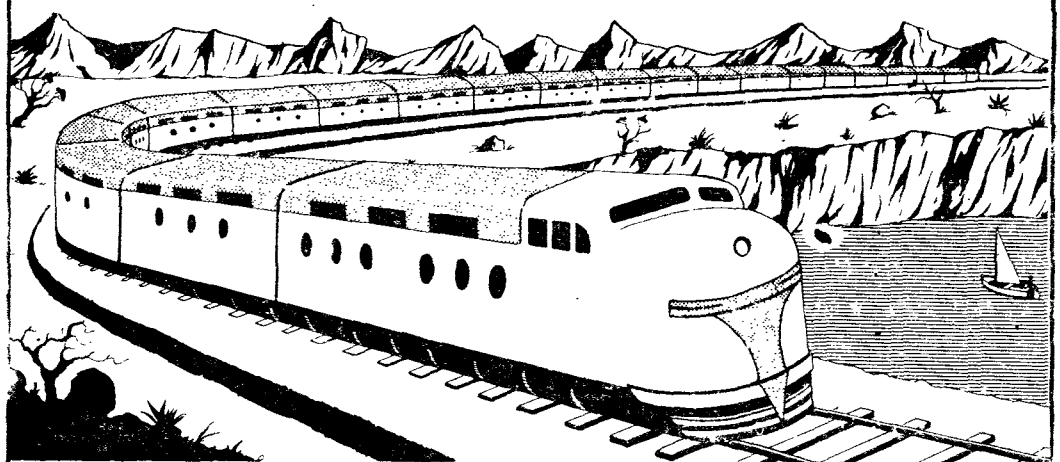

قطار حديث يسير بمحرك « ديزل »

النفط يساهم في التقدم

شركة نفط الكويت المحدودة